أحلام لها تاريخ

٤

أحلام يوسف الصديق عليه السلام

بقلم :
أ. د. محمد سيد أحمد المسير
أستاذ العقيدة والفلسفة
كلية أصول الدين - جامعة الأزهر الشريف

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المسير ، محمد سيد أحمد .
أحلام يوسف الصديق عليه السلام .
بقلم : محمد سيد أحمد المسير .
- ط ١ - القاهرة : دار المعارف ، (٢٠٠٨) .
٢٨ ص ؛ ١٩ سم . (أحلام لها تاريخ ؛ ٤) .
تدمك : ٨ - ٧٢٤٤ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١- قصص الأنبياء .
(أ) العنوان . (ب) السلسلة .

ديوى ٢٢٩,٥

رقم الإيداع ٢٢٥٠٧ / ٢٠٠٨ ٧/ ٢٠٠٨ /٦٦

تصميم الغلاف: أحمد عبد النعيم

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ..

أما بعد..

فهذا هو الجزء الرابع من سلسلة «أحلام لها تاريخ» تحت عنوان «أحلام يوسف الصديق عليه السلام».

وقد جاءت هذه الأحلام فى سورة قرآنية باسم «سورة» يوسف، ولم يتكرر ذكرها فى القرآن الكريم، واشتملت من العبر والدروس ما يصلح شأن الراعى والرعية، ويبنى دعائم الأسرة الرشيدة، ويبيِّن دخائل النفس الإنسانية فى حبها وبغضها، فى عفافها وانحلالها، فى غناها وفقرها، فى عدلها وظلمها..

وقد تضمن هذا الجزء أحلام يوسف عليه السلام التى رآها بنفسه وأحلام صاحبى السجن اللَّذيْنِ التقى بهما يوسف، وأحلام الملك التى حوّلها يوسف إلى خطة اقتصادية على مدى خمسة عشر عامًا..

وما كان يوسف عليه السلام فى تفسيره للأحلام إلا بناء على وحى إلهى وتعليم ربانى..

والله ولى التوفيق

أ. د. محمد سيد أحمد المسير

يوسف (عليه السلام)

الكريمُ ابـنُ الكَريم ابنِ الكَريم ابنِ الكَريم، يوسـفُ بنُ يعقُوب بنِ إسـحق بنِ إبراهيـم عَليهم السـلَام، هكَذا وصفهُ رسـولُ الله (ﷺ) كمَا جاءَ فِي مُسـند الإمام أحمد ..، وَفِي صَحيح البخَارى بسنده عنْ أبِي هُريرة قالَ: سُـئل رسـولُ الله (ﷺ) أىّ النـاسِ أَكْرم؟ قالَ: «أكرمُهم عنْد الله أتْقاهم» قالُوا: ليَس عنْ هذَا نسألكَ، قالَ: «فأكرمُ النَّـاسِ يُوسُـف نبىُّ الله ابنُ نبى الله ابنُ نبـىِ الله ابنِ خليل الله» قالُوا: ليسَ عنْ هذَا نسألكَ، قالَ: فعنْ معَادن العربِ تسألُونى؟» قالُوا: نَعَمْ، قالَ: «فخيارُكُم فِي الجَاهليَّة خيَارُكم فِي الإسلَام إذَا فَقهُوا»[1].

ونَستطيعُ أَنْ نتبينَ فى حَياة يُوسف (عليه السلام) ونُبوته ثلَاث مراحِل:

١ - مرحَلة الإرهَاص فى فلسْطين وَالبئْر.

٢ - مرحَلة النبوّة فى القصْر والسجْن.

٣ - مرحَلة الجهْر والتمْكينِ عَلى عرْش الحكْم وسيَاسة الرعيَّة.

المرحلة الأولى:

شَـملتْ رعايةُ الله وَعنايته يُوسـفَ منـذُ كانَ صبيًا، وتجلَّى ذلكَ فِي رُؤْيـاه لأَحـدَ عَشَرَ كوكبًا والشَّـمس والقمرَ سَـاجدينَ لهُ، فلقدْ

(١) يُقَالُ فَقهَ - بكسـر القاف - إذَا فَهِمَ، فِقْهًا أى فَهْمًا، وَفقُه الرجلُ - بضمِّ القاف. إذَا صَار فَقِيهًا.

تأوَّلها أبوهُ يعقوبُ بالاصْطفاء للوحْى وَاستمْرار النبوّة فى آل بيته .. قالَ تعـالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

ومـنَ المعلوم أنَّ الرؤيَا الصَّالحة جُزء منَ النبوَّة، وأنَّ أولَ مَا بُدئ به الوحْى لسيدنَا مُحمد (ﷺ) هوَ الرؤيَا الصَّالحة، فكانَ لاَ يرى رؤيَا إلَّا جاءتْ مثْل فَلَقِ الصُّبْح.

وتوالـتِ الإرهاصاتُ عَلى يوسفَ، حـينَ أصرَّ إخوتُهُ عَلى التخلُّص منهُ، وأجمعُوا أنْ يجعلوهُ فِى غيَابة الجبِّ، ناجَاه الله وأَوْحَى إليه بمَا يُطمئنُ فؤادَهُ ويثبتُ قلبهُ ويبشرهُ بالفرَج والنَّصر المبين..

قـال الله تعـالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[2] .

المرحلة الثانية:

تداركَت رحمةُ الله يوسـفَ فى غيابة الجبِّ فأبقَتْ عَلى حَيَاته، إلى أَنْ مرَّت جماعةُ منَ الناس يسقُون وأرسلُوا وَاردَهُم فأدلَى دلوهُ فتعلَّق به يوسـفُ وَخرجَ منَ البئْر، فاسْتبشرتْ تلكَ الجماعةُ بهِ خيراً وباعُوه

(١) سورة يوسف الآية ٦.

(٢) سورة يوسف الآية ١٥.

عَلى وجْه السُّرعةِ لعزيز مصْرَ بثمَنٍ بخْس، ودخلَ يوسفُ قصْرَ العزيزِ بتكريم وَاحْترام، وكانتْ هناكَ نيةٌ لتبنِّيه وَاتخاذه ولدًا..

وَفِي قصْر العزيز شبَّ يوسُف، وبلغَ أشدَّه، وجاءتهُ النبوةُ وكرمهُ اللهُ بالاصْطفَاء للوحْى .. قالَ تعالَى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

وكانَ ذلكَ تدبيراً إلهيًا مُحْكمًا لاَ يخضعُ لإرادةِ بشَر، فإنَّ اللهَ إذَا أرادَ شيئًا يسَّرَ لهُ أَسْبابهُ، وهيأَ لهُ منَ الأحوالِ مَا لاَ يخطرُ عَلى البالِ ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وتجلَّت النبوةُ ليوسفَ فِي صفائهَا وجلالهَا حينَ امتُحنَ بامرأةِ العزيزِ وَرَاوَدَتْهُ عنْ نفسهِ فعصمهُ الله العصمةَ الكاملةَ ورأَى برهانَ ربهِ، وظهرَ صدقُ يقينهِ وطهْر إيمانه، واستمسكَ بالعُروة الوثقَى وَآثر الأمانةَ فى عَليائهَا: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٣).

ولما بلغَت الفتنةُ منتهاهَا بمؤَازرة نسْوة المدينةِ لامرأة العزيز وَإصرارهَا عَلى الفحْشَاء أوِ التَّنْكيلِ بِهِ، لجأَ يوسفُ (عليه السلام) إلى

(١) سورة يوسف الآية ٢٢.
(٢) سورة يوسف الآية ٢١.
(٣) سورة يوسف الآية ٢٣.

الله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

وَاكتملتِ المؤامرةُ بإدخَال يوسفَ السجْن رغمَ براءتهِ وظُهور دَلائل طهَارته ووضُوح حُجَّته.

ودخلَ يوسفُ السجنَ وواصلَ مسيرةَ الدعوَةِ التى بدأهَا فِى قصْر العَزيز، والتفتَ إلَى منْ حولهُ منَ السجنَاء ودعَاهم إلى الله وحدُه .. ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

المرحلة الثالثة:

قضَى يوسفُ بضعَ سنينَ فى السجْن، ثمَّ ظهرَ الصبحُ لِذى عينيْن، وتجلَّت الحقيقةُ كاملةً، وعرفَ الجميعُ براءةَ يُوسف (عليه السلام)، وحينئذٍ اسْتخلصهُ الملكُ لنفسه، بعدَ أنْ فَسّر لهُ رؤياهُ بخطَّة اقتصَادية

(١) سورة يوسف الآية ٣٣، ٣٤.
(٢) سورة يوسف الآية ٣٩، ٤٠.

تستمرُّ خمسة عَشَر عامًا، تبدأُ بسبْع سنينَ يكثرُ خيرهَا ويفيضُ زرعُهَا وضرعُهَا، ثمَّ يعقبهَا سبعُ سنينَ يعمُّ فيهَا القحطُ وينتشرُ الجدبُ، ثمَّ يكونُ العامُ الخامس عَشَر عَام رخاء وَبَرَكة.. ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

وهذَا الخبرُ منْ وراء الغيْبِ، إنمَا هوَ وحْى إلهىٌّ تلقَّاه يوسُف (عليه السلام)معْجزةً لنبوَّته..

وتولَّى يوسفُ خزائنَ مصْرَ ومارسَ الدعوةَ إلى الله فى ربوعهَا حتَّى توفَّاه الله تعالى، وظلَّتْ دعوةُ يُوسفَ عَلى السَّاحة المصْرية حقبًا متطَاولة لمْ تنسخْ ولمْ تُجدَّد حتَّى جاءَ موسَى (عليه السلام) إلى فرعونَ وقَوْمه..

ولقدْ أكدَ القرآنُ هذَا المعنَى عندَما قالَ عَلى لسَان مُؤمن آل فرعَوْن: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[2]

---

(١) سورة يوسف الآيات ٤٧: ٤٩.

(٢) سورة غافر الآية ٣٤.

رؤيا المرحلة الأولى

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[1].

فِي مرحَلة الصِّبا رأَى يوسُف الصِّديقُ رؤيَا عَجيبَة، لقدْ رأَى أَحَد عَشر كوكبًا مضافًا إليهَا الشَّمْس وَالقَمر فِي حَال سُجود وخضوعٍ لَهُ..

فعرضَ يوسفُ (عليه السلام) رؤياهُ عَلى أقربِ الناسِ إليهِ وهوَ أبوهُ يعقُوب النَّبِي، سَليل بيْتِ النبوةِ فهوَ يعقوبُ بنُ إسحق بنِ إبرَاهيم عَليْهم السَّلام.

ومعلُوم أنَّ النبوةَ صلةٌ بالله تعالَى، وَهيَ أعظَم الصِّلات وَأقْواهَا، وأعزهَا وَأكرمهَا، فاسْتمعَ يعقوبُ إلى رؤيَا وَلده يُوسف باهتمام خَاص وتفكيرٍ عميقٍ، ثُم قدَّمَ الوالدُ نصيحةً لولَدِه قبلَ أَن يُفسر رؤيَاهُ..

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

فالنَّصيحة كانتْ بكتمانِ أمْرِ هذهِ الرؤيَا عنْ إخوتهِ لأبيهِ بعدَ وفاةِ أُمِّه، لأَنهم كانُوا يَستشعرونَ حبَّ يَعقُوب ليوسفَ وأَخيهِ بنيَامين

---

(١) سورة يوسف الآية ٤.

(٢) سورة يوسف الآية ٥.

أكْثر منْ حُبه لَهُم..

وحـبٌ يعقُوب لبعضِ أبنائـه لَمْ يُؤد إلىَ ظُلم أَحدٍ منهم، وَإنما هُو ميْـل قَلْبى قدْ لاَ يملكهُ الإنسـانُ، فالقلُوب بيدِ الرحمنِ يُقلِّبهَا كيفَ يَشَاءُ.. وَأيًّا ما كانَ فإن الإخوةَ ولو كانُوا أشقَّاء يتنافسُونَ فيمَا بَيْنهم، وتقعُ خصومَاتٌ لأتفهِ الأسبَابِ..

ولا شكَّ أنَّ للشيطانِ دورًا فى إيقاظِ العداوَة بينَ الناسِ وَتأجيج الصراعَات فِى الأُسرةِ الواحدَة، فتلكَ رسَالتهُ منذُ عَداوَته الأُولى لآدمَ (عليه السلام).

وكتـمانُ النعمةِ لوقْتِ ظُهورها أدبٌ شرعىٌ، وَفِى الحديثِ الشرِّيفِ: «استعينُوا عَلى قضَاء حَوَائجكُم بكتمَانهَا فإنَّ كلَّ ذى نعمةٍ محسُود».

وهذَا لا يتعارضُ معَ قوله تعالىَ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1].

فالآيةُ الكريمةُ تتحدَّثُ عنِ النعمةِ بعدَ حُصُولها، وَالحديثُ الشريفُ يتحدَّثُ عنِ النعمةِ قبْلَ حُصُولهـا، فالأمرُ المحبوبُ المترقَّبُ حدوثهُ يُكتم، فإذَا وقعَ فشـكْرُ الله عليهِ بالحديثِ عنهُ وَ إظهارِ فضْل الله فيه، ودعوَة الناسِ إلى حسْن الظنِّ بالله..

أَمَّا تعبيرُ الرؤيَا لدَى يَعقُوب (عليه السلام) فكانَ عَلى ثلَاثة أَنحاءٍ:

١ - «وكذلكَ يجتبيكَ ربُّكَ».

---

(١) سورة الضحى الآية ١١.

٢ - «وَيُعلمُكَ منْ تأويل الأَحَاديث»..

٣ - «ويتمُّ نعمتهُ عليكَ وعَلى آل يَعْقوبَ كَمَا أتمهَا عَلى أبويْكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ»..

وَالاجتبـاءُ هوَ الاصْطفاءُ للنبوةِ أَوِ الشرفِ وَالعزِّ وَالمكانةِ والرفعةِ، وتدخلُ النبوةُ فِي ذلكَ لكنْ ليسَ عَلى سبيلِ القطْعِ واليقينِ.

وتعليـمُ تأويلِ الأَحَاديثِ هـوَ تأْويل الرُّؤى وتفسـيرهَا أوِ العلْم بالأحـكام الشَّرعيَّة وَالفقـة فِي الدِّين، فالمـرادُ بالأحاديثِ مرويَّات الرُّؤَى أَوِ أخْبَار الأَنبياء وَقصصُهم.

وإتمامُ النعمةِ بشرفِ الدنيَا وكرامَة الآخرةِ كَما أتمهَا عَلى جَدَّيْه منْ قبلُ إسحق وإبراهيم فكانَا نبيَّيْنِ كريميْنِ لهَما الذكْرُ الحسنُ فِي الدنيَا والآخرةِ. فإسـحق بشَّرت بهِ الملائكةُ إبراهيمَ وزوجَه سَارة على كِبَر سـنٍّ وعقْرِ زَوْج، وَإبراهيمْ أَبُو الأنبيَاء منْ بعدهِ فمَا منْ نبيٍّ أُرسل بعدَ إبراهيمَ إلاَّ منْ نسلهِ، فإسماعيلُ أَبُو العربِ المسْتعربة، وإسحق أَبُو الانبياءِ فِي بنِي إسْرَائيلَ، وَتتواردُ هنَا تسَاؤُلات:

١ - مَا دلاَلَةُ الكواكبِ السَّاجدةِ ليوسفَ عَلى حقيقَة الوَاقع؟

والجوابُ أَنَّ هذه الكوَاكب دَلاَلَة عَلى إخوته وكَانُوا أحَدَ عَشَر، وأنَّ الشـمسَ والقمرَ دلاَلَة عَلى أبيهِ وأمِّه أوْ خالتهُ التِي تزوجهَا يعقُوب بعدَ وفَاةِ أمِّ يُوسف، والخالةُ كالوَالِدَة.

٢ - كيفَ يكونُ إخوةُ يُوسف كالكواكبِ المنيرةِ معَ أنهمْ حَقدوا عَلى يُوسف وألقُوه فِي الجبِّ بعْدَ أنْ أرادُوا قَتْله؟!

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

وكَذَبوا عَلى أبيهم وَتَباكَوْا خداعًا ومكْرا .. قال تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[2].

وكذبُوا عَلى يُوسفَ وَاتَّهموهُ بالسَّرقة .. قال تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾[3].

والجوابُ أنَّ إخوةَ يُوسف لَمْ يكُونوا أنْبياء وَإنَّمَا كانُوا أصْل الأسْبَاط

---

(١) سورة يوسف الآيات ٨ : ١٠.

(٢) سورة يوسف الآيات ١٦ : ١٨.

(٣) سورة يوسف الآية ٧٧.

أي القبائل الإسْرائيلية التي تواردَ عليها الأنبياءُ والرسُل، ولمْ يردْ في القرآنِ الكريم أسْماء إخْوة يُوسف لاَ في الأنبياء وَلاَ في هذه القصَّة، وكلُّ ما ذكرهُ القرآنُ هوَ ضَرورةُ الإيمانِ بمَا أُنزلَ على الأسْباطِ أيْ أنبياء القبائل الذينَ هُم منْ نسْل يَعْقُوب .. قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[1].

٣ - متى تحققت الرؤيا؟

والجوابُ أنَّ العلماءَ اختلفُوا في زَمَنِ تحقُّقِ الرؤيَا، فقالَ أكثرهُمْ إنَّ مَا بينَ الرؤيَا وَتحقُّقهَا أربعونَ سنةً وقالَ بعضُهم ثمانونَ سنةً.

أيْ أنَّ المدةَ التي مرَّت عَلى رؤيَا يوسُف (عليه السلام) وهوَ صغيرٌ حتَّى وَقعتْ كَما رآهَا اسْتغرقتْ وقتًا طويلاً حفلَ بأحداث جَسيمةٍ وَمَواقف أليمة..

لَقَدْ أُلقيَ يوسفُ (عليه السلام) في الجبِّ وَاسْتخرجهُ بعضُ السَّيارةِ وَبيعَ لعزيزِ مصْر، وعاشَ في قصْره معَ امرأته خادمًا مطيعًا، ثُم فتنتْ به المرأةُ لحسْن جماله، وَدعتهُ لنفسهَا فأبَى واسْتعصمَ، وَرفض بشدَّةٍ

(١) سورة البقرة الآية ١٣٦.

وحافظَ عَلى الوفَـاء لعزيزِ مصْر، ثمَّ اجتمعَ نسـوةُ المدينة وَتآمرْنَ عَليه، ووقفتِ امرأةُ العزيزِ بلاَ حياءٍ لتُعْلن أَمَامهنَّ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[1].

فَابتهلَ يُوسـفُ إلى ربه فِي ضراعـة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾[2].

ويقضِي يوسفُ فِي السجْن بضعَ سنينَ بتُهمةٍ كاذبَةٍ وبتزويرٍ فِي ملفَّاتِ القضيَّةِ، إلىَ أن خرجَ من السِّـجنِ بناءً عَلى رغبةِ الملكِ الذى رَأى رؤيَا حَارَ الجميعُ فِي تأويلهَا، وَلمْ يسـتطعْ أحدٌ تفسـيرهَا إلاَّ يُوسف (عليه السلام)، فأفسحَ لهُ الملكُ المجالَ وجعلَ يُوسفَ عَلى خزائنِ مصْرَ..

وَدارتِ الأيامُ دَورتها وَأَتَى إخوةُ يُوسـف منَ الشَّام إلَى مصْر طلبًا للزَّاد وَالغـذاءِ فَعَرفهُم وهُمْ لهُ مُنكرونَ، وَوَقعت مجموعةُ أحداثٍ وصلَت مُنتهاهَا إلىَ أنْ طلب يوسفُ منْ إخْوَتِه أَن يحضرُوا معَ أبيهم ليعيشُـوا فِي مصْرَ تحتَ كفالته ورعَايتـه وكانت المفاجَأةُ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

(١) سورة يوسف الآية ٣٢.
(٢) سورة يوسف الآية ٣٣، ٣٤.

ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾[1].

٤ - هل يجوز السجود لغير الله؟

والجواب: لقدْ سجدَ إخوةُ يُوسف وأبويْه لهُ سجودَ تحيَّة وَاحترام، فالسجودُ قدْ يكُونُ عبادَة للمسْجُود لهُ كَمَا فِي قوله تعالىَ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2].

وقدْ يكونُ السجودُ - عادةً- كمَا فِي بعض الشعوب التِي تُعظِّمُ ملُوكَهَا وكبراءَهَا، وَالسجودُ قد يكونُ وضعاً للجبْهة عَلى الأرض، وقدْ يكونُ مجرَّد انحناءَة يَسيرَة بالرأْس أو الظهْر.

وَقيل إنَّ سجودَ إخوَة يُوسف لهُ كانَ لله شكرًا وحمدًا بعدَ أنْ وصلُوا إلى يوسفَ فِي عزِّه وسُلْطانه، كمَا يُقال: صَلَّيتُ للكَعْبة أَوْ إلى الكَعْبة فصارَ يوسفُ كالقبْلة لَهُم وسببًا فِي سُجُودهِمْ، كَمَا سَجَدتِ الملائكةُ لآدمَ (عليه السلام) استجابةً لأَمْر الله..

---

(١) سورة يوسف الآية ٩٩، ١٠٠.

(٢) سورة النمل الآية ٢٤.

أحلام المرحلة الثانية

قال الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

شاعَ خَبَرُ امرأةِ العزيزِ معَ يوسفَ في المدينة، فأرادَت أن تضعَ النساءَ المقرَّباتِ منهَا في موقفِ الافتتَانِ بيُوسفَ الذى أُعطى شطْرَ الحسْنِ، فأرسلَت إليهنَّ وَأعدَّتْ لهنَّ طعامًا شهيًّا وَجِلْسَة أنيقَةً، وبدأْنَ يأكلْنَ الطعامَ والفاكهَة التى تقطعُ بسكِّين، وأمرتْ يوسفَ (عليه السلام) بالخروج إليهنَّ وخدمتهنَّ عَلى المائدة، فَما كدْنَ يرونَ يوسفَ حتَّى وقعْن في حُبِّه وَتاهَت عقولُهن فقطَّعنَ أَيْديَهُنَّ بدلا منْ تقْطيعِ الفاكهةِ التى أمْسكنَ بهَا..

ولمْ تَجد امرأةُ العزيزِ مفرًّا منْ إعلانِ شهوَتهَا الجَائرَة، وطَلبتْ منْ يوسفَ (عليه السلام) أنْ يمارسَ معهَا الفاحشة وإلاَّ أوْشتْ بهِ إلى القضاءِ ليدخلَ السِّجنَ..

فَما كادَ يُوسف يسمعُ بهذَا التهديدِ حتَّى جأرَ إلى الله تعالىَ أنْ يعصمَهُ منَ الزَّلل، وَرَضىَ بالسِّجنِ بديلاً عنْ حيَاة القصْرِ في مُنكرٍ وفَاحشَة..

وهناكَ في السِّجن التقَى يوسف بآخرينَ سُجنَاء، عَامَلهم أحسنَ مُعاملةٍ،

---

(١) سورة يوسف الآية ٣٦.

وَاشْتهر بينهمْ بالأَمانةِ وصدْقِ الحديثِ وحُسْن السُّمعَة وكَثرة العبَادَة..

وكانَ بينِ السُّجناء صَاحب سُقيا الملكِ وصَاحب طَعامه، ظنَّ بهمَا الملكُ التآمُر عَليْه بوضْعِ السُّم فِي شَرابهِ وطعامه فأدْخلهمَا السجنَ، وَشاءَ الله أَنْ يرى كلُّ واحد منْ خَادمى الملكِ رؤيَا يحارُ فيهَا، فقصَّ كلٌّ منهمَا رؤيَاهُ عَلى يُوسفَ.

الأولى: «قالَ أحدهما إنِّى أرانِى أعْصرُ خمرًا»..

الثانيــة: «وقالَ الآخرُ إنِّى أرَانى أحمــل فوقَ رأسِى خُبزًا تأكلُ الطيرُ منهُ»..

وهنَا أظهرَ يُوســفُ دعْوَته ورسَــالته التى حمَّلهُ الله إيّاهَا، وبيَّنَ نَسبَهُ العميق فِى الإيمانِ والعملِ الصَّالح، وأخذَ يدعُو صَاحبى السِّجْن إلَى التوحيدِ وترْك الشِّرك وأنَّ الدينَ الحقَّ قائمٌ عَلى إفراد الله تعالى بالعبَادة.. قال جلّ شأنهُ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1].

وَقدَّم يوسفُ دليلاً عَلى نبُوته وَعناية الله بـه فقالَ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾[2].

أىْ أنهُ يُخبر صَاحبى السجنِ بالطَّعام الذى سَيأتيهمَا غداءً أو عشاءً قبلْ أنْ يصلَ إليهمَا، عَلى غرارِ مُعْجزة عيسَى (عليه السلام) فى قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾[3].

فمن جُملةِ مُعجزاتِ عيسَى (عليه السلام) إخْبارهُ بما غَاب عنهُ وأخفاهُ الناسُ ممَّا يأكُلونَ أوْ يدخرونَ فِى بُيُوتهم، ولمْ يكنْ ذلكَ كَهَانة أو تنجيمًا أوْ فرَاسة فهىَ مظنَّة الخطأ، وَصدْقُ مرةٍ فِى هذه الحالاَت يتبعهُ الخطأُ مرَّات ومَرَّات، أماَّ المسيحُ فيتكلمُ بوحْىِ الله إليْه وكذلكَ كانَ يوسفُ (عليه السلام) يتكلَّمُ بمَا علَّمهُ ربُّه..

ويمكنُ أَن يرادَ بقوله ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾[4].

أنَّ يُوسف يَستطيعُ بمَا علَّمهُ الله أنْ يُخبر صَاحبَى السِّجْن بالطَّعام

---

(١) سورة يوسف الآيات ٣٧ : ٤٠.

(٢) سورة يوسف الآية ٣٧.

(٣) سورة آل عمران الآية ٤٩.

(٤) سورة يوسف الآية ٣٧.

القاتلِ وَالطَّعام السَّـليم، لأنَّ الملكَ كانَ إذَا أرادَ قتْل إنسـانٍ دسَّ لهُ السُّمَّ فِي الطَّعام..

ثمَّ عبّر يوسُـف (عليه السلام) لصَاحبى السجن رؤيَا كل منهمَا فقالَ: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾[1].

فالذِى رأَى أنهُ يعْصر خمرًا سَـيَخرجُ من السجنِ ويلتحقُ بخدمة الملكِ ويعاودُ نشـاطَه فى السُّـقيا والشَّراب.. والـذى رأَى أنهُ يحملُ فوقَ رأسـهِ خبزًا تأكلُ الطيرُ منهُ، سـينفَّذُ فيـهِ حُكم الإعدَام وَيترك مصلوبًا بضعَةَ أيَام فتقعُ الطيورُ عَلى رأْسِه.

ولمْ يُواجه يوسـفُ كلَّ واحدٍ بتفْسير رؤياهُ، وإنمَا تكلَّم عَلى سبيلِ العموم فقالَ: أمَّا أَحدُكما .. وأمَّا الآخرُ، ولمْ يحدِّدْ واحدًا مِنْهُمَا خشيةَ حُزنه وَألمه قبْل التنفيذِ لحكْم الإعَدام..

ثُم تنحىَّ يوسـفُ الصَّديـقُ بأحدهمَا وهوَ الذى بَـشَّرهُ بالخرُوج منَ السـجنِ، وطلبَ منهُ أنْ يكلمَ الملكَ فِى شأنِ يُوسف الذى وُضع فى السـجنِ ظلمًا وَزُورًا، وَلُفِّقَتْ لهُ تهمـةٌ هوَ منهَا بَرِئ، فالملكُ غيرُ العزيزِ، فالملكُ هوَ الحاكمُ والعزيزُ هوَ الوزيرُ..

---

(١) سورة يوسف الآية ٤١.

وتحقَّقت رُؤيا صَاحب سُقيا الملك كَمَا عبّرهَا يوسفُ (عليه السلام) وخـرجَ منَ السِّـجن وعفَا عنهُ الملكُ وأعـادهُ إلى الخدمةِ فِي القصْر الملكيِّ وعاشَ السَّاقي فى حياةِ الترفِ وَلَمْ يعدْ يتذكَّرُ منْ بُؤس السِّجْن شـيئًا وَنسىَ الصحبةَ الذينَ كانُوا معهُ فى السِّـجن، بلْ نسىَ يوسُـفُ نفسَـهُ صاحبَ البُشْرى لهُ، ومضَى على ذلكَ بضعَ سنينَ..

قـال اللـه تعـالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[1].

ومعنَى قولـه تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾[2]. أَىْ أنَّ الشـيطانَ أنْسى السَّاقى ذكرَ يُوسـف عندَ الملكِ إلَى أنْ حدثَ مَا يستوجبُ الذكْر وهوَ رؤيَا الملكِ نفسه..

وكلمـةُ الربِّ قدْ تطلقُ عَلى البـشَر، كقولنَا: ربُّ الأسرةِ وربُّ الدار وربُّ العملِ..

---

(١) سورة يوسف الآية ٤٢.

(٢) سورة يوسف الآية ٤٢.

أحلام المرحلة الثالثة

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[1].

لقدْ مكثَ يوسفُ الصديقُ فى السجْن بضعَ سنينَ، وجاءَت لحظةٌ فاصلةٌ غيَّرت مَجْرى الأحداثِ كلَّهَا والمواقف بأجمعهَا، لقدْ رأى الملكُ رؤيَا أرَّقتهُ، لقدْ رَأى سبعَ بقرَاتٍ سِمَانٍ وَسبعَ بقرَاتٍ عجَافٍ هزيلةٍ إلاَّ أنَّ هَذه البقراتِ الهزيلَة الضَّعيفَة تأكلُ البقراتِ السِّمَان، كما رأى سبعَ سُنبلاتٍ منَ القمحِ خُضْرًا وبجوارهَا سبْع سُنبلاتٍ يَابسةٍ لاَ ثمرَةَ فيهَا..

وعرضَ الملكُ رؤياهُ عَلى حَاشيته التى تضمُّ مُفسرينَ للأحلام، فنظَرُوا فيهَا فلمْ يَفْهموا شيئًا، وَصَنَّفُوهَا تحتَ أَضْغَاثِ الأحلامِ التى لاَ تخضعُ للتأويل وَإنَّمَا هىَ أحلامٌ شَيْطَانيَّة..

قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾[2].

وهنَا كانتِ المفاجأةُ لقدْ تذكَّر السَّاقى السجْن ومَنْ فيه، وتذكَّرَ يُوسفَ الصِّديقَ الذى بشَّرهُ بالخُروجِ من السجْن والالتحاقِ بخدمةِ الملكِ..

---

(١) سورة يوسف الآية ٤٣.

(٢) سورة يوسف الآية ٤٤.

فأرسلَ السَّاقي إلى يوسفَ عَليه السَّلام يَسْتَفْتيه في رؤيَا الملك ففسَّرها يوسُف -بوحْيٍ منَ الله تعالى- وحولهَا إلى خُطَّة اقتصاديّةٍ عَلى مَدى خمسةَ عَشَر عامًا..

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

وحَاصل تَأْويله أنهُ فسَّر البقراتِ السِّمانَ والسُّنبلات الخضْر بسنينَ يكثُر خيرُهَا وزرعُهَا، وَأرشدهُم إلى طريقةٍ للتَّخْزينِ فَريدَة، وهيَ أنْ تُترك الغلالُ في سنابلهَا حتَّى لا يَنَال منهَا السُّوسُ، وهيَ نَصيحةٌ خارجَةٌ عَنْ تعبيرِ الرؤيَا، ثُم فسَّر البقرَات العجَاف وَالسُّنبلات اليابسات بسنينَ جدْبَاء يشتدُّ فيهَا القحطُ وتأتي عَلى المخزونِ منَ الغلالِ.. ثُمَّ بشَّرهم زيادَةً عَلى تَعْبيرِ الرؤيَا أنهُ سيأتي من بعد ذلكَ عامُ فَرَجٍ وَرَخَاء، فيهِ يُغاثُ الناسُ (من الغيثِ وهو المطرُ أو منَ الغَوْثِ وهوَ الفَرَج) وَفيه يعْصرونَ أيْ يَتَّخذونَ الزيوتَ والدهونَ لكثرةِ الأعنابِ وَالزَّيتونِ وغيرهمَا..

ونقلَ الساقي تفْسير الرؤيَا إلى الملكِ فَدُهِشَ لذلكَ وَازْدادَ حيْرةً،

---

(١) سورة يوسف الآية ٤٧: ٤٩.

وأصرَّ عَلى أنْ يَأتي يوسُف إليهِ ليناقشَهُ في هذه الخطَّة الاقتصاديَّة بعيدَة المدَى.

فلمَّا جاءَ رسولُ الملكِ إلى السجْن وطلبَ منْ يُوسف الخُروج معهُ رفضَ يوسُف الصديقُ أن يخْرجَ دونَ ردّ اعتبارٍ لهُ، قالَ الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾[1].

فليسَ معقولاً أن يدخلَ يوسفُ السجنَ وسطَ ضجَّة هوْجَاء هزَّت المدينةَ كلهَا ثمَّ يخرجُ في صمْتٍ دونَ معرفةِ أسبَاب الدخولِ وَالخروج، وأرادَ يوسفُ أنْ يفتحَ ملفَّ القضيَّة وَيُعاد التحقيقُ فَاستجابَ الملكُ ودعَا نسوةَ المدينةِ وامرأةَ العزيزِ وبدأ التحقيقُ منْ جديدٍ..

وفجأةً انطلَقَتْ أصواتُ نسوَة المدينة وصوتُ امرأةِ العزيز:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٠.

(٢) سورة يوسف الآيات ٥١ : ٥٣.

لقدْ أَعلنت امرأةُ العزيزِ أمامَ الملكِ وَبحضورِ نِسْوة المدينةِ حَقيقةَ الموقفِ، وَأنها هِيَ التى رَاودت يوسفَ عنْ نفسِه وَأرادَت الرَّذيلةَ وأصرَّت عَلى الفاحشة ، وَأنها سَعتْ سعيًا حثيثًا لوضْع يُوسف فِي السجْن جزَاءَ عَفَافه وَطَهَارته وَوَفائه..

ولعلَّ هذه العَلانية فى التوبةِ تُعادل العَلانية فى الجريمة، لقد جَهرتْ باصْرارهَا عَلى الفاحشَةَ أمامَ نسوةِ المدينةِ منْ قَبْل، والآنَ وبعدَ بضْعِ سنينَ تجهرُ بالشهَادة ليُوسفَ، فهَذه بتلكَ، فعلانيةُ الذَّنبِ تقتضِى علانيةَ التوبَة..

ثُمَّ أكَّدَت لزوجهَا أنهَا لمْ ترتكبِ الفاحشَةَ معَ أحدٍ، وأنَّ الأمرَ معَ يوسفَ كانَ مُجرد رَغبة حمقَاء لم تتحقَّقْ فقالتْ:

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾[1].

وَقِيلَ إنَّ مرجعَ الضَّمير فِي قوله «لَمْ أَخُنْهُ» إلى يوسفَ (عليه السلام) بمعنى أنهَا لمْ تقدَحْ فيه أثناءَ غَيْبته فِي السجْنِ، وَأنهَا تعلنُ الآن أمامَ الحاضرينَ طهارتَهُ ومازَالَ سَجِينًا..

وَاتَّهمت امرأةُ العزيزِ نفسهَا بالسُّوء وَندمَتْ عَلى مَا فرطَ منهَا، وَلجَأت إلى الله تعالىَ بالتوبة وَاسْتقام أمرُهَا بعدَ ذلكَ..

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا

(١) سورة يوسف الآية ٥٢.

رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وَانتهت القصةُ بتَتْويج يوسفَ عزيزًا لمصْر، أمينًا عَلى أموالهَا وزروعهَا وثمارهَا، وداعيًا إلى الله، ونبيًّا رسُولاً..

قَالَ تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۖ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

ومنَ المرويَّات التى لا سندَ لهَا وَالتى نتوقَّفُ فِى قبولهَا أنَ الملكَ عَزَلَ عَزِيزَ مصْر فماتَ منْ ليْلته فأمَرَ الملكُ بزوَاج يُوسف منَ امرَأة العزيز، وحينَ دَخلت عليه قالَ لهَا: أليسَ هذَا خيراً ممَّا كنت تُريدينَ؟

فقالتْ: أيُّهَا الصِّديقُ لا تلمْنى فإنِّى كنتُ امرأةً كَمَا تَرَى حَسْناء جَميلة نَاعمَة فِى مُلك وَدُنيا وكانَ صَاحبى لاَ يأتِى النساءَ، وكنتَ كَمَا جعلكَ الله فِى حُسْنكَ وَهَيْئتكَ عَلى مَارَأيتُ..

ويُقال إنَّ يوسفَ وجدهَا عذْرَاء..

وساقَ الإمامُ القُرطبى فى تفسيرِه روايةً عنْ وهْب بن منبه، أنَّ زليخَا[3] ماتَ زوجُهَا وَيوسُف فِى السجْن وذهبَ مَالُهَا وعمىَ بصرُهَا بكاءً عَلى يُوسف، فصارتْ تَتَكَفَّفُ الناسَ، فمنهمْ منْ يرحمهَا ومنْهم منْ لاَ يرحمهَا..

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٣.

(٢) سورة يوسف الآية ٥٦.

(٣) هو اسم امرأة العزيز، ولم يرد فيه نص شرعى إسلامى، وإنما هو من مرويات الفكر اليهودى.

وكانَ يوسفُ يركبُ فِي كلِّ أُسبوعٍ مرةً فِي موكبِ زُهَاء مائةِ الفٍ منْ عُظماءِ قومه، فقيلَ لهَا: لو تعرَّضت لهُ لعلهُ يُسعفك بشيءٍ ثُمَّ قيلَ لهَا: لا تفعلى فربمَا ذكَر بعضَ ما كانَ منكِ منَ المراودةَ والسِّجنِ فيُسئُ إليكِ..

فقالتْ: أَنَا أعلمُ بخلُق حَبِيبِى منكُم، ثُمَّ تركتهُ حتَّى إذَا ركبَ فِي موكبهِ نادَتْ بأعْلى صَوْتهَا: سبحانَ منْ جعلَ الملوكَ عبيدًا بمعْصيتهم، وجعَل العبيدَ مُلوكًا بطَاعَتهم!!

فقال يوسفُ: مَا هذه؟ فأتوْا بهَا فقالتْ: أنَا التى كنتُ أخدمكَ عَلى صُدُور قدمى، وأرَجلُ جمتكَ (شعرك) بيَدى، وَتربيتَ فِي بيتى وَأكرمتَ مثواكَ لكنْ فرطَ ما فرط منْ جهْلى وَعُتوِّى فذقتُ وبَالَ أمرِى فذهبَ مالِى وتضعضَع رُكنى وطالَ ذُلِّى وعَمىَ بَصرى، وَبعْدَ ما كنتُ مَغْبوطَة أهلِ مصْر صرتْ مَرْحُومتهم، أتكفَّفُ الناسَ فمنهُم منْ يرحمُنِى ومنهُمْ مَن لاَ يرحَمُنى وهَذَا جزاءُ المفْسدينَ..

فبكَى يوسفُ بكاءً شديدًا ثمَّ قالَ لهَا: هَلْ بَقيتِ تجدينَ ممَّا كانَ فى نفسكِ منْ حبكِ لِى شيئًا؟

فقالتْ: والله لنظرةٌ إلىَ وجْهكَ أَحَبُّ إلَىَّ منَ الدنيَا بحذَافيرِهَا، لكنْ نَاولْنِى صَدْر سوْطكَ، فناولهَا فوضعتهُ عَلى صدْرهَا فوجدَ للسَّوْطِ فِي يدهِ اضطرابًا وارتعَاشًا منْ خفقَانِ قلبهَا فبكَى، ثُمَّ مضَى إلى منزلهِ

فأرسلَ إليهَا رسُولاً:

إنْ كنتِ أيِّمًا (بلاَ زَوْجٍ) تزوَّجنَاكِ وإنْ كنتِ ذَا بعْلٍ أغنينَاك..

فقالتْ للرسُـولِ: أعوذُ بالله أنْ يَسْـتهزئَ بِى الملـكُ، لم يَقْبَلْنِى فِى شبَابِى وَغنَاىَ ومَالى وعزِّى أفيريدُنِى اليومَ وأنا عجوزٌ عمْيَاء فَقيرة؟!

فأعلمهُ الرسـولُ بمقَالتهَا، فلمَّا ركبَ فِى الأسـبوعِ الثانِى تعرَّضَتْ لهُ فقالَ لهَا: ألمْ يبلغُك الرسُولُ؟ فقالتْ: قدْ أخبرتكَ أنَّ نظرةً واحدةً إلى وجهكَ أحَبُّ إلىَّ منَ الدنيَا ومَا فيهَا.

فأمـرَ بهَا فأصلحَ منْ شـأنهَا وهُيِّئتْ ثُمَّ زُفَّت إليه، فقامَ يوسـفُ يُصلى ويدعُو الله وقامتْ وَراءهُ، فسـألَ الله أنْ يعيدَ إليهَا شـبابَهَا وجمالَهَا وبصرَهَا، فردَّ الله عليهَا شبابَها وجمالهَا وبصرهَا حتَّى عَادَتْ أحسـنَ مَا كانتْ يَومُ رَاوَدتهُ إكرامًا ليوسـفَ (عليه السلام) لمَّا عفَّ عنْ محارِم الله فأصابهَا وهىَ عذْرَاء..

فسـألهَا فقالت: يَانَبىَّ الله إنَّ زوْجى كانَ عنِّينًا -لاَ يأتِى النسـاءَ- وكنتَ -أنتَ- منَ الحْسن والجمالِ بمالاَ يُوصف..

فَعَاشَا معًا، كلُّ يوم يجددُ الله لهمَا خيراً.

وفيمَا يُروى أنَّ اللهَ أَلْقَى فِى قلْبِ يوسفَ أضعافَ ما كانَ فِى قلبهَا فقالَ لهَا: مَا شأنكِ لا تحبينَنى كمَا كنتِ فِى أوَّل مرَّة؟

فقالتْ: لما ذقتُ محبةَ الله تعالىَ شغلنِى ذلكَ عنْ كلِّ شىءٍ.

هـذه الروايةُ مـنَ الروايَـاتِ الاسرائيليَّة التى شـاعتْ فى الفكرِ اليهـودى، ونحنُ نقفُ منهَا موقـفَ الصمتِ لا نصدقُهَا ولاَ نكذبهَا فَهى لاَ تتعارضُ معَ نصٍّ شَرْعى، وَهِىَ أشـبهُ بـالأدب الرمْزى وَفيهَا حِكمٌ كَثيرةٌ:

١ - المعصيةُ ذلٌّ والطَّاعة عِزٌّ..

٢ - عاقبةُ المفسـدينَ البَوَار وَالخُسْرَان، وعَاقبةُ الصَّالحينَ الحسْـنى وزِيَادة.

٣ - الصَّبْر مفتَاحُ الفَرَج..

٤ - القلـبُ الفارغُ عنْ ذكرِ الله هوَ القلـبُ الضَّائع، والنفْسُ إذَا لمْ تشغلهَا بالحقِّ شَغَلتك بالبَاطل..

٥ - إنَّ حبَّ الله عزَّ وجلَّ هـوَ الأَسـمىَ وَالأعزُّ والأقدسُ وهُوَ يَفُوقُ كلَّ شىء، قالَ الله تعالىَ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥.